في التصوير الإسلامي

ليلى والمجنون

للدكتور محمد مصطفى

— ٤ —

جعل الملوّح بن مزاحم يبحث طويلاً بين الحجاج عن ابنه « قيس » ، إلى أن ساق القدر إليه حادياً قادماً من ناحية نجد مع قافلة من الحجاج ، فأخبره الحادي أنه رأى في طريقه شاباً ناحلاً أشعث الشعر ممزق الملابس يضرب في البادية على غير هدى ، ولما اقترب منه وناداه فرّ هارباً واختفى في دغل قريب راح يراقب من خلال أشواكه الحادي وما عسى أن يصنع . وعرف الحادي المجنونَ وأراد أن يجتذبه إليه كي يستنشده بعض أشعاره فرفع صوته يغني أنشودة للمجنون يقول فيها[1] :

مني النفسِ ليلى قرّبي فاك من فمي
كما لفّ منقاريهما غَرِدان
تَذُق قُبلةً لا يعرف البؤس بعدها
ولا السُّقْمَ رُوحانا ولا الجسدان
فكل نعيم في الحياة وغبطة على شفتينا حين تلتقيان
ويخفقُ صدرانا خفوقاً كأنما مع القلب قلب في الجوانح ثان

واطمأن المجنون إلى الحادي حين سمعه يتغنى بذكر ليلى ، فثاب إليه رشده ، وأقبل من خلف الدغل نحو القافلة يسأل الحجاج[2] :

أحجاج بيت الله في أي هودج وفي أي خدر من خدوركم قلبي
أأبقى أسير الحب في أرض غربة وحاديكم يحدو وقلبي في الركب

ولما رآه الحادي مال إليه فجلس إلى جانبه يحدثه عن ليلى ويقص عليه ما سمعه من أخبارها ، والمجنون ينصت في شغف وشوق ، وقد هاج هذا الحديث في نفسه ذكريات الصبا ، فصار يقاطعه بين حين وآخر لينشد ما يخطر له من أناشيد حب قالها في حبيبته ليلى . إلى أن أقسم عليه الحادي أن ينشده أحسن ما قاله في وصف المحاجر والأطراف والبشرة والجلد . فقال[1] :

ليالي أصبو بالعشي وبالضحى إلى خُرَّد ليست بسود ولا عُصل
منعمة الأطراف هيفٌ بطونُها
كواعب تمشي مشية الخيل في الوحل
وأعناقها أعناق غزلان رملة وأعينها من أعين البقر النجل
وأثلاثها السفلى بَرادِيّ ساحل
وأثلاثها الوسطى كثيب من الرمل
وأثلاثها العليا كأن فروعها عناقيد تُنذّى بالدهان وبالفَسل
وتَرمي فتصطاد القلوب عيونها وأطرافها ما تحسن الرمي بالنبل
زرعن الهوى في القلب ثم سقينه
صبابات ماء الشوق بالأعين النجل
رعابيبُ أقصدن القلوب وإنما
هي النبل ريشت بالفتور وبالكحل
ففيم دماء العاشقين مُطَلَّةٌ بلا قَوَد عند الحسان ولا عقل
ويقتلن أبناء الصبابة عنوة أما في الهوى يا رب من حَكَم عدل

وما انتهى المجنون من أنشودته هذه حتى لمح غزالاً يقفز متحيراً في الأفق البعيد فهب واقفاً وهو يقول[2] :

ألا يا شبه ليلى لا تراعي ولا تنسل عن وِرْدَ التلاع
لقد أشبهتها إلا خلالا نشوز القرن أو خشن الكراع

ثم جعل يعدو خلف الغزال حتى كاد يلحق به واختفى عنه من أعين الحادي وقافلة الحجاج

* * *

خرج زياد بن مزاحم يبحث عن ابن عمه « قيس » ،

(١) شوقي ص ٩٩ (٢) الديوان ص ٣٠

(١) الديوان ص ١٩ — ٢٠ (٢) الديوان ص ١٣

فوجده جالساً على ربوة قريبة ، يخطط بأصبعه فى التراب ، ويحدق أمامه نحو مضارب بنى عامر على سفح جبل التوباد . ولما عرفه المجنون ناداه فجلس إلى جانبه يحدثه عن أهل الحى وأخبارهم ، وعن رجوع والده من مكة — بعد سماع قصة الحادى — حزيناً مكتئباً ، وبقى زياد عنده يستنشده الشعر ويدون ما يسمعه منه . وجلسا ذات صباح يتحدثان فظهر لهما شبح امرأة قادمة نحوهما ، ثم أخذت تقترب منهما شيئاً فشيئاً حتى تبيناها ، فإذا بها « بلهاء » جارية المجنون وكانت تحمل بين يديها قصعة بها طعام ، وقام إليها المجنون يعانقها ويقبل يديها ، وتناول منها القصعة وهو يقول[1] :

أرى صنع أمى يا زياد ، فديتها ... بروحى وإن حمّلتها الهم والبرحا

ثم نزع عن القصعة غطاءها فوجد بها ذبيحة مشوية ، فعجب لذلك والتفت إلى زياد مستفهماً ، إذ لم يكن فى الوقت ما يدعو إلى ذلك . وسأل زياد البلهاء أن تحدثهما بخبر هذه الذبيحة ولا تكتم عنهما شيئاً من حقيقة أمرها فقالت :

لقد مرّ عرّاف اليمامة بالحمى ... فما راعنا إلا زيارته صبحا
طوى الحى حتى جاء عن قيس سائلاً ... وأظهر ما شاء المودّة والنصحا
ولاحت له شاةٌ جثوم بموضع ... تخيلها ظلاً من الليل أو جنحا
فقال اذبحوها ليك فالخير عندها ... فقام إليها يانع يحسن الذبحا
فقال انزعوا من جثة الشاة قلبها ... فلم نألُ قلب الشاة نزعاً ولا طرحا
فلما شويناها رَقَى بمزائم ... عليها وألقى فى جوانبها الملحا
وقال اطلبوا قيساً فهذا دواؤه ... كأنى به لما تناوله صحّا

وحث زياد قيساً على أن يأكل من الشاة متوسلاً إليه بقوله :

تعلل قيس بالشاة عساها تذهب الحبا ... فما العراف بالمجهو ل لا علماً ولا طبّا
طبيب جرّب اليابس فى الصحراء والرّطبا ... وتلك الأمّ يا قيس أطعمها تطع الرّبا

وأراد قيس أن يجامل زياداً ويتذوق شيئاً من الشاة فقال :

زياد اسمع وكن عونى ... وخل اللوم والعتبا
إذا ما لم يكن بُد ... فإنى آكل القلبا

وسرت بلهاء بذلك ومدت يدها إلى صدر الشاة تبحث فيه عن القلب ... ولكنها تفقدته فلم تجده ، فاضطربت وجعلت تخاطب نفسها :

القلب ! أين القلب ؟ أيـــن يا ترى وضعته ؟
ياويح لى ! نسيتُ أنى ... بيدى نزعتـــه !

وكان فى ذلك فصل الخطاب ، فرفض قيس الطعام والدواء وهو يبكى أحر البكاء ويقول :

وشاة بلا قلب يداوو ننى بهـا ... وكيف يداوى القلب من لا له قلب

ورجعت بلهاء إلى الحى تجر أذيال خيبتها ، وروت لقومها ما حدث ؛ فاجتمعوا فى بيت اللوح يتشاورون فى أمر المجنون . ومرّ بهم بعض الأطباء فسأله اللوح عما يعالج ؛ فقال أعالج كل مسحور مجنون ، قال : مكانك لآتيك بابن لى بهيم فى الصحراء ؛ فخرجوا فى طلبه . فما زالوا يطلبونه حتى أحضروه وأدخلوه إلى المعالج ، وأقبل يسقيه ؛ فلما أكثر عليه المعالجة أنشأ يقول[1] :

ألا ياطبيب الجن ريحك داونى ... فإن طبيب الأنس أعياه دائيا
أتيت طبيب الأنس شيخاً مداويا ... بمكة يعطى فى الدواء الأمانيا
فقلت له يا عم حكمك فاحتكم ... إذا ما كشفت اليوم يا عم ما بيا
فخاض شراباً بارداً فى زجاجة ... وطرّح فيه سلوة وسقانيا

فقلت ومرضى الناس يسعون حوله

أعوذ برب الناس منك مداويا

فقال شفاء الحب أن تلصق الحشا

بأحشاء من تهوى إذا كنت خاليا

ثم جعل يمض شفتيه ولسانه حتى خلاه أهله . فنهض المجنون ومضى إلى ربوات جبل التوباد يسعى وراء الذكريات والسلوة .

وفى (شكل ١) ترى المجنون وقد ارتمى على الأرض يقبل قدمى البلهاء التى تحاول أن تمنعه من ذلك . وهذه الصورة[2] من مخطوط كتب فى مدينة هرات حوالى سنة ١٤٥٠م .

(يتبع)

محمد مصطفى

(١) الديوان ص ٦١ (٢) منقولة عن : Martin, II, 62

لا أومن بالعقل

بقلم محمد العماوى

معالجة لمسائل الخير والشر والحق والباطل . فلسفة جديدة قامت على عدم التعصب لنتائج العقل وتصوير الحواس

يطلب من مكتبة الفكر الحديث بشارع خيرت ، ومن مكتبة النهضة المصرية بشارع المدابغ ، ومن جميع المكاتب الشهيرة بالقاهرة .

الثمن ١٠ قروش . ورق أبيض مصقول . النسخ محدودة